رسالة - لم يسبق نشرها - لأبي إسحاق الصابئ إلى ابنه أبي سعيد سنان

أ. د. محمد يونس عبد العال(*)

الكاتب :

هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن حَبُّون الصابى الحرّانى[1] (٣١٣ - ٣٨٤ هـ) ، من أشهر كتاب الرسائل فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، بل أشهرهم على الإطلاق فيما رآه بعض الدارسين .

أصل سلفه من مدينة "حَرّان" فى شمالى العراق، وقد عُرفت هذه المدينة منذ القدم بالفلاسفة والعلماء، وبأنها أشهر مراكز الوثنية السريانية والثقافة اليونانية، وظلّت كذلك إلى ما بعد الإسلام، يدرس علماؤها الرياضة والفلك والفلسفة على المذهب الأفلاطونى[2]، وكان أكثر أهل حرّان من الصابئة (أو: الصابئين)[3] وقد تسمّوا

(*) الأستاذ بكلية الآداب - جامعة عين شمس.

(١) انظر ترجمته فى: الفهرست لابن النديم (ط الرحمانية، ١٣٤٨ هـ) ص ١٩٣؛ يتيمة الدهر للثعالبى (ط الصاوى، ١٣٥٢ هـ/ ١٩٣٤ م) ٢/٢١٨؛ معجم الأدباء للحموى (ط دار المأمون ، الحلبى، ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨م) ٢/٢٠-٩٤ ؛ وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد (ط ١، السعادة، ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨ م) ١/٣٤-٣٦؛ تاريخ الحكماء للقفطى (ط ليبزج، ١٩٠٣ م) ص ٧٥-٧٦؛ سير أعلام النبلاء للذهبى (مخطوط مصور بدار الكتب المصرية، رقم ١٢١٩٥- ح) ١٠/٢٧٨؛ الوافى بالوفيات للصفدى (إصدار: جمعية المستشرقين الألمانية) ٦/١٥٨-١٦٣ والصابئ بالهمز، فإن سُهِّل صار بالياء.

(٢) عن حَرّان، انظر: معجم البلدان لياقوت الحموى (ط طهران، ١٩٦٥ م) ٢/٢٣٠-٢٣٢ ؛ المعرَّب للجواليقى (ط دار الكتب المصرية ، ١٣٦١ هـ) ص ١٢٣؛ وفيات الأعيان ، ترجمة ثابت بن قرة ١ / ٢٧٨-٢٨٠؛ ضحى الإسلام لأحمد أمين (ط ٩ ، النهضة المصرية ، ١٩٧٧ م) ١ / ٢٥٦- ٢٥٧ ؛ تاريخ الأدب العباسى لنيكلسون ، ترجمة : د . صفاء خلوصى ، (ط بغداد ، ١٩٦٧ م) ص ١٥٥.

(٣) عن الصابئة، انظر: الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيرونى (ط ليبزج، ١٩٢٣م) ص ٢٠٥-٢٠٦ ، ٣١٨؛ الفهرست، ص ٤٤٢ -٤٥٦؛ مفاتيح العلوم للخوارزمى (ط بريل، ١٩٦٨م) ص ٣٦؛ الملل والنحل للشهرستانى، تخريج: محمد بن فتح الله بدران (ط ٢، القاهرة، ١٩٦٥م) ١/٢١٠ - ٢١١ وأيضا ٢/٧ ، ٦٠ - ٦١ .

ومن المصادر والمراجع أيضا: التنبيه والإشراف للمسعودى (ط الصاوى، ١٩٣٨م) ص ١٣٨ ؛ نخبة الدهر فى عجائب البرّ والبحر للدمشقى (ط ليبزج، ١٩٢٣م) ص ٣٩ - ١١٩،٤٧؛ وفيات الأعيان "ترجمة إبراهيم بن هلال" ١/٣٤ - ٣٦؛ نهاية الأرب للنويرى (ط دار الكتب المصرية، ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩م) ١/٥٧ - ٥٩؛ روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات للميرزا محمد باقر الموسوى الخوانسارى (ط ٢، طهران، ١٣٤٧ هـ) ص ١٤١ - ١٤٢؛ كتاب مندالى أو الصابئة الأقدمين لعبد الحميد بكر عبادة (ط بغداد، ١٩٢٧م) ص ٣ وما بعدها؛ تاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور، ترجمة: محمد عبد الهادى أبو ريدة (ط ٣، القاهرة، ١٩٥٤م) ص ١٩؛ تاريخ الأدب العباسى لنيكلسون، ص ١٦٢، ١٩٤؛ دائرة المعارف الإسلامية "مادة: الصابئة" لكارا ده فو.

بهذه التسمية فى عصر الخليفة المأمون (تولى الخلافة من ١٩٨ حتى ٢١٨ هـ) وكان منهم كثير من المؤلّفين وممّن تولّوا ترجمة العلوم من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية[١].

وفى صدر الدولة العباسية، قدم بغداد جماعةٌ من صابئة حرّان، منهم: آل زَهرون وأنسباؤهم آل قُرّة، وقد أثّروا تأثيرًا كبيرًا فى شتى ألوان الثقافات والعلوم كالطب والصيدلة والحساب والهندسة والفلك والتاريخ والأدب ...

وجدّ أبى إسحاق الصابى لأبيه هو إبراهيم بن زهرون، وكان طبيبًا مشهورًا فى صناعته وافر العلم [٢].

أما أبوه أبو الحسين هلال بن إبراهيم، فقد وصف بأنه "نزيل بغداد" وكان طبيبًا حاذقًا عاقلا صالح العلاج متفنّنًا نفع الناس بصناعته، وتقدّم لدى أجلاء بغداد[٣].

وبلغ عَمُّه أبو الحسن ثابت بن إبراهيم (٢٨٣ - ٣٦٩ هـ) من العلم والشهرة فى بغداد شأوًا كبيرًا، وكان ضنينًا بما يحسنه من الطبّ، وله مصنّفات وأخبار ومواقف مع أعلام عصره، مثل عز الدولة وعضد الدولة والمهلبى وابن بقيّة [٤].

وأشهر الصابئة وأسيرهم ذكرا : ثابت بن قُرّة (٢٢١ - ٢٨٨هـ) وكان صيرفيًا بحرّان، ثم استصحبه محمد بن موسى لما انصرف من بلاد الروم لِما رآه من فصاحته. وهو أصل ما تجدّد للصابئة من الرئاسة فى بغداد لدى الخلفاء، ولم يكن فى زمنه مَن يماثله فى صناعة الطب ولا غيره من جميع أجزاء الفلسفة، وله تصانيف جيدة، وجاء من ذرّيّته ومن أهله جماعة كثيرة يقاربونه فيما كان عليه من حسن التخرّج والتمهّر فى العلوم [٥].

وكان ابنه أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرّة (ت ٣٣١ هـ) - وهو جدّ أبى إسحاق الصابى لأمّه - أديبًا فاضلا مؤرّخًا عارفًا بعلم الهيئة ماهرًا بصناعة الطب، خدم

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين (ط ١٢، النهضة المصرية، ١٩٧٨م) ص ١٣٠ .

(٢) تاريخ الحكماء، ص ٧٦؛ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة، تحقيق : نزار رضا (ط بيروت، ١٩٦٥م) ص ٣٠٧ ؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة "الصابى"، الجزء (١٤) من الترجمة العربية، ص ٨٦.

(٣) تاريخ الحكماء، ص ٣٥٠؛ تاريخ مختصر الدول لابن العبرى (ط بيروت، ١٨٩٠م) ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٤) تاريخ الحكماء، ص ١١١ - ١١٥ وانظر: الفهرست، ص ٣٨١، ٤٢١؛ عيون الأنباء، ص ٣٠٧ - ٣١١؛ تاريخ مختصر الدول، ص ٣٠٢؛ الوافى بالوفيات ٤٦٥/١٠ .

(٥) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل، تحقيق: فؤاد سيد (ط المعهد العلمى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م) ص ٧٥ ؛ عيون الأنباء، ص ٢٩٥ - ٢٩٧، وانظر: تاريخ الحكماء، ص ١١٥ - ١٢٢ ؛ وفيات الأعيان ٢٧٨/١ - ٢٨٠ ؛ الوافى بالوفيات ٤٦٦/١٠ - ٤٦٧ ؛ روضات الجنات، ص ١٤١ - ١٤٢ .

المقتدر ثم القاهر ثم الراضى، وعظمت منزلته حتى صار رئيسًا على الأطباء، وله تصانيف كثيرة ذكرها بعض من ترجموا له، وكان أخوه إبراهيم بن ثابت أقلّ نباهة منه[١].

ولسنان بن ثابت ابنان، هما خالا أبى إسحاق، أولهما: إبراهيم (٢٩٦ - ٣٣٥ هـ) وصف بأنه كان كاملا فى العلوم الحكمية، فاضلا فى الصناعة الطبية، متقدّمًا فى زمانه، حسن الكتابة، وافر الذكاء[٢]. والآخر يُدعى: ثابت (ت ٣٦٥ هـ) وكان على الشاكلة نفسها، بارعًا فى الطب عالما بأصوله فكّاكًا للكتب، ألّف كتابًا فى التاريخ ملأت شهرته الآفاق، وهو من سنة نيّف وتسعين ومائتين، إلى حين وفاته، وعليه ذيّل هلال بن المحسّن بن أبى إسحاق إبراهيم، ولولاهما لجُهل شىء كثير من التاريخ فى أيّامهما[٣].

نشأ أبو إسحاق الصابى فى بغداد وتأدّب بها[٤]، وكانت ثقافاته عريضة شاملة، ظهر أثرها فيما كتبه من رسائل ومؤلفات، ولم تكن هذه الثقافات قاصرة على ما أتقنه من علوم اللغة والبلاغة وغيرها مما جعله أهلا لأن يكون أحد كتاب زمانه المرموقين، ولكنه أتقن علومًا أخرى كالرياضيات والطب والفلسفة، أما الرياضيات فقد أقرّ بها من تحدثوا عنه أو ترجموا له كأبى حيان التوحيدى[٥]، والقفطى الذى قال عنه: "له يد طولى فى علم الرياضة، وخصوصا الهندسة والهيئة ... وله مصنّف رأيته بخطّه فى المثلّثات، وله عدّة رسائل فى أجوبة مخاطبات لأهل العلم بهذا النوع[٦]، وأما الطبّ فقد أتقن علومه منذ حداثته، وكان يخلف أباه وينوب عنه فى خدمة جماعة من الرؤساء ويعمل فى البيمارستان براتب شهرى[٧]، وأما ثقافته الفلسفية فمن شواهدها أن أباحيان التوحيدى أورد فى مقابساته بعض آرائه فى أمور شتى ، مثل: الطبيعة وتأثيرها فى الناس وما تؤدى إليه من اختلافهم فى المذاهب والآراء، وحقيقة اليقظة والحلم، والسبب فى أن إنشاء الكلام الجديد أيسر على الأدباء من ترقيع القديم ... [١] .

(١) الفهرست، ص ٣٨٠، ٤٢١ ؛ تاريخ الحكماء، ص ١٩٠ - ١٩٥ ؛ عيون الأنباء، ص ٣٠٠ ؛ معجم الأدباء ٢٦٢/١١ - ٢٦٣ ؛ تاريخ مختصر الدول، ص ٢٧٥ .

(٢) الفهرست، ص ٣٨١ ؛ عيون الأنباء، ص ٣٠٧ ؛ وانظر: تاريخ الحكماء، ص ٥٧ .

(٣) الفهرست، ص ٤٢١ ؛ طبقات الأطباء لابن جلجل، ص ٨٠ ؛ تاريخ الحكماء، ص ١٠٩ - ١١١ ؛ عيون الأنباء، ص ٣٠٤ - ٣٠٧ ؛ الوافى بالوفيات ٤٦٣/١٠ - ٤٦٤ ؛ ولأبى إسحاق الصابى أشعار فى رثائه.

(٤) أثبت ياقوت الحموى طائفة من المرويّات التى رواها أبو إسحاق الصابى نفسه، نقلها الحموى مما قرأه من كتابات ابنه المحسّن وحفيده هلال بن المحسّن - معجم الأدباء ٢/ ٥٤ - ٦٠ .

(٥) أخلاق الوزيرين، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجى (ط المجمع العلمى العربى، دمشق) ص ٤١٥ .

(٦) تاريخ الحكماء، ص ٧٥ وانظر: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٧) معجم الأدباء ٥٤/٢ - ٥٥ .

وقد وصفه ابن النديم بأنه: "مترسّل بليغ شاعر عالم بالهندسة، والغالب عليه صناعة الكتابة والبلاغة والشعر"، أما مؤلفاته فهى كما ذكرها ابن النديم أيضا: "ديوان شعر، كتاب ديوان رسائل إلى وقتنا هذا نحو ألف ورقة ، كتاب مراسلات الشريف الرضى أبى الحسن محمد بن الحسين الموسوى، كتاب أخبار أهله وولد ابنه ؛ عمله إلى بعض ولده، كتاب دولة بنى بويه وأخبار الديلم وامتداد أمرهم؛ ويعرف بالتاجى"[٢] .

وكتب أبو إسحاق الصابى للخليفتين : المطيع والطائع، ولأمراء بنى بويه: معزّ الدولة وصمصام الدولة ....، وللوزراء : المهلّبى وابن بوَيّة وأبى الريّان حمد بن محمد ....، وتوثّقت صلته بكثير من أعيان عصره؛ مثل: الصاحب إسماعيل بن عباد، وأبى القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبى الفرج الببغاء، والسرى الرّفاء، وابن سكّرة، والخالديين الشاعرين، وابن معروف القاضى، وأبى نصر سابور بن أردشير، وأبى العلاء صاعد بن ثابت، وعثمان بن جنّى الذى روى له ياقوت الحموى قصيدة فى رثائه[٣]، ولعل من أشهر ما عرف فى باب الصداقات ما روى من صداقته للشريف الرضى مع اختلاف ملّتيهما وتباين نسبيهما وتفاوت سنّيهما، فقد كان بينهما من المودّة الأكيدة والمكاتبات البليغة ما تناقلته كتب الأدب، وقد رثاه الرضى بعدة قصائد، منها داليّته التى تعدّ من أشهر مراثى العرب وأطولها، وأوّلها : [٤]

أعلمتَ من حملوا على الأعواد

أرأيت كيف خبا ضياءُ النادى؟

وقد عرف عنه بأنه كان حريصا على الالتزام بالرسوم والطقوس التى تدعو إليها

---

(١) المقابسات ، تحقيق: حسن السندوبى (ط الرحمانية، ١٩٢٩م) ص ١٥١ - ١٥٣ ، ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) الفهرست، ص ١٩٣ - ١٩٤، وذكر الحموى أن من مؤلفاته أيضا: كتاب اختيار شعر المهلبى؛ معجم الأدباء ٩٤/٢ وانظر: الأعلام للزركلى ٧٣/١ - ٧٤ ؛ معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (ط دمشق، ١٩٥٧م) ١٢٤/١ . و"التاجى" نسبة إلى تاج الملّة، وهو اللقب الآخر الذى لُقّب به عضد الدولة، وانظر ما ورد عن هذا الكتاب التاريخى فى الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين (ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٩ - ١٩٤٢م) ٦٨/١ ؛ ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع، نشر: أمدروز (ط مصر، ١٣٣٤ هـ/١٩١٦م) ص ٢٣ ووفيات الأعيان ٢١٨/٣ .

(٣) معجم الأدباء ٨١/١٢ - ٨٢ .

(٤) ديوان الشريف الرضى (ط بيروت، ١٣٠٧ - ١٣٠٩هـ) ص ٢٩٤ - ٢٩٨ ، ٥٧١ - ٥٧٢ ، ٩٧٥ - ٩٧٧؛ رسائل الصابى والشريف الرضى، تحقيق: محمد يوسف نجم (ط الكويت، ١٩٦١م) ص ٤٥ - ٦٢ ؛ يتيمة الدهر ٢٨١/٢ - ٢٨٦ ؛ معجم الأدباء ٢٣/٢ - ٢٤ .

نِحْلته، وصفه بعض من عرفه فقال إنه: كان من نُسَّاك أهل دينه والمتشدّدين فى ديانته، فى محاماته على مذهبه، وتصوّنه عمّا يدعو إليه الهوى، يقول[١]:

حَمَتْنى لَذَّتى رتبُ المعالى ... وضنِّى بالمُروءة والوقارِ
ودينٌ ضاق فيه مجالُ فتكى ... لخوفِ عقوبةٍ وحذار نار
فوا شوقًا إلى خلْع العِذار ... وفعلى ما أُريد بلا اعتذار
ويا لَهْفى على حلِّ الإزار ... صريعا بين سُكر أو خُمار

وكان يظهر تشدّده دون مجاملة أو مصانعة ودون وجل أو تخوّف، فقد حُكى أيضًا أنه حضر يومًا مائدة المهلّبى الوزير، فامتنع عن الأكل لباقلاء كانت عليها؛ لأنها محرّم على الصابئة كيفما كان، مع السمك ولحم الخنزير ولحم الجمل وفراخ الحمام والجراد، فدعاه المهلبى إلى أن يأكل معهم من هذه الباقلاء، فقال: "أيها الوزير، لا أريد أن أعصى الله فى مأكول"، فاستحسن ذلك منه[٢].

ورُوى أن عز الدولة بذل له ألف درهم على أن يأكل الفول وهو محرم على الصابئة فلم يرض[٣].

ومن ينظر فى رسائله التى كتبها إلى بعض أهله وأهل ملّته يجد الحرص الشديد عليهم وعلى إسداء النصح لهم، وقد كتب إلى اثنين من الصابئة يعزّيهما عن ولد مات لهما، فقال: "وما أُعزّيكما - يشهد الله - إلاَّ والعزاء لى معجز، ولا أُسلّيكما إلا والسُّلوّ عندى مُعْوز، لاشتراكنا فى الأفراح والأحزان ، وتعادل أقساطنا فى الزيادة والنقصان، ولأننا أهل شريعة قد ضاقت حَلقتها وخَمَدت جَمْرتها، فليس تسهُل علينا الفجائع سُهولتها على ذوى الكثرة، ولا تَنْدمل نُدوبنا فينا اندمالها من أُولى القوّة"[٤].

وكتب إلى صابئة حَرّان سنة ٣٦٦ هـ جوابًا عن كتاب ورد عليه منهم يهنّئونه بالإطلاق من الحبس، بعد أن أداله الله ممن سعى عليه واجتهد فى هلاكه واستهلك حاله، فقال: "... فأما ما أَبَنْتم عنه - أيّدكم الله - من المشاركة لى فى الشدّة والرخاء،

(١) الخبر والأبيات فى يتيمة الدهر ٢/٢١٩ .
الفتك: ركوب ما تدعو إليه النفس دون مبالاة ، وفَتَك فى سلوكه: مجن - يقال: خلع فلان عذاره: انهمك فى الغى ولم يستح - الخُمار: ما يصيب شارب الخمر من الألم والصداع .
(٢) يتيمة الدهر ٢/٢١٩ .
(٣) معجم الأدباء ٢/٢٢ .
(٤) المختار من رسائل أبى إسحاق الصابى، القسم الثانى، ص ٤٦٢ - ٤٦٣ .

والكون معى فى البؤس والنعماء، فما بشىء منه خفاءٌ فتوضّحونه[١]، ولا فيه شكّ فتدلّون[٢] عليه، وكيف لا يكون ذلك كذلك، وقد ألّفت بيننا عِصْمة الدين ونِحْلة الصابئين، الذين يعتقدون رحمة الأعداء إذا حصلوا فى اللأواء[٣]، والحُنُوّ على الأباعد إذا دُفِعوا إلى الشدائد ... فضلاً عمّن تجرى المودّة منكم له مَجْرى الأنفاس، وتَسوغ مَساغ الكاس؟ لا أَعْدمنى الله كباركم إخوة وصغاركم أولادًا، وكثّر فيكم مَنابت النجابة ومعادن اللَّبابة، وجعل الأخلاف منكم أكثر من الأسلاف عددًا وأبعد فى الدين والفضل أمدًا ... وأما دعاؤكم - أيّدكم الله تعالى - لى فقد كنت أعتدّه دِرعًا حصينة، وجُنّة متينة، وأعلم أن الله - تعالى - تداركنى به حتى لان لى غِلَظُ القلوب، وتَزَحْزحت عنى كَلاكلُ الخطوب ... فحفِظنى الله بصلاتكم وأَنْقذنى بالرحمة لكم ... "[٤].

وظلّ أبو إسحاق الصابى يعمل فى دواوين الخلافة والوزارة طيلة حياته، تقلد فيها المناصب الجليلة وتولّى ديوان الرسائل فى بغداد غير مرّة، وقد أغراه بعض الكبراء بالإسلام ووعدوه ومنّوه، ولكنه لم يهتد - كما قال بعض القدماء - للإسلام كما هُدِى لمحاسن الكلام، ولعل فى شخصيته ما يكشف عن جانب من الجوانب المشرقة التى عومل بها أهل الملل الأخرى، فيه من دلالات التسامح وحسن معاملة غير المسلمين ما يمثل سِمة من أظهر سمات الحضارة العربية الإسلامية عبر أحقابها المتطاولة.

وكان له من الأبناء ثلاثة[٥]، أشهرهم أبو على المحسّن (ت ٤٠١هـ) وُصف بأنه أديب فاضل بارع، لقى الأدباء والعلماء وأخذ عنهم، كأبى سعيد السيرافى، وأبى على الفارسى، وأبى عبيد الله المرزبانى، وله شعر حسن، وكتابات بخطه رآها ياقوت الحموى ، وقد توفى وهو على دين أبيه[٦].

---

(١) كذا.

(٢) كذا.

(٣) اللأواء: الشدّة.

(٤) المختار من رسائل أبى إسحاق الصابى، القسم الثانى، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٥) هم: أبو على المحسّن، وأبو سعيد سنان، وأبو العلاء صاعد - معجم الأدباء ٨/١٧ .

(٦) معجم الأدباء ٣٣/٢ ، ٣٤ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٨ ، ٩٠ وترجمته فى المصدر نفسه ٨١/١٧ - ٨٦؛ وسير أعلام النبلاء ٢٧٩/١٠ .

وكان ابنه هلال بن المحسن (٣٥٩- ٤٤٨هـ) أديبا كاتبا فاضلا، له معرفة بالعربية ومصنفات كثيرة، أسلم آخر عمره، وحسن إسلامه، ذكر الخطيب البغدادى أنه ثقة صدوق - ترجمة هلال فى: تاريخ بغداد (ط السعادة، ١٣٤٩ هـ/١٩٣١م) ٧٦/١٤ ؛ معجم الأدباء ٢٩٤/١٩ - ٢٩٧؛ وفيات الأعيان ١٥٢/٦ - ١٥٦؛ سير أعلام النبلاء ٢٧٩/١٠ ؛ وانظر: صبح الأعشى للقلقشندى (ط دار الكتب المصرية، ١٩١٣ - ١٩١٧م) ٢٨٠/٩ - ٢٨٢ ، ٢٨٥ - ٢٨٦ وأيضا ٢١١/١٣ - ٢١٣ ، ٣٣٩ .

=

وأسنّ أبنائه: أبو سعيد سِنان، وصفه ياقوت الحموى بأنه "لم يكن بالنبيه"، وقد توفّى فى أثناء حياة أبيه، فرثاه بأشعار رواها الثعالبى، استهلها بقوله[١]:

أَسْعدانى بالدمعة الحمراء ... جَلّ ما حَلّ بى عن البيضاء
يُؤلم القلبَ كلُّ فقدٍ ولا مِثْـ ... ـل افتقادِ الآباء للأبناء
هَدّ رُكنى مَثْوى سنانٍ وقد كا ... ن يَهُدّ الأركانَ من أعدائى

وعندما قبض عضد الدولة على أبى إسحاق قبض معه على ولديه: المحسّن وسنان، ويروى فى ذلك أنه أمر وزيره المطهّر بن عبد الله أن يُفرج عن ابن أبى إسحاق صاحب الشّامة (أى: المحسّن) فإن له قديم خدمة، فثقُل على سنان أن يُطلَق أخوه من دونه، ودَمْدم على والده دمدمة قال له أبو إسحاق عندها: "أىّ أمرٍ لنا يا بنى فى نفوسنا؟ أم أى ذنب لى فيما لطف به لأخيك وحرمته؟" ثم سأل ابنه المحسّن فى أن يخرج أسبوعًا، ويخرج أخوه أسبوعًا، ويقع بينهما مناوبة فى ذاك، فامتنع المحسّن وأبى، ولكنه رفق به رفقًا جعله يستحى معه، فأجابه إلى ما يريد، وكتب أبو إسحاق إلى المطهّر:

ابناى عَيْنَاى كَفَّ الحبسُ لَحْظهما ... وعزّ حسُّهما عن منظر النور
أطلقتَ لى منهما عينًا وقد بقيتْ ... عينٌ فصرتُ من الابنين كالعُور
فسَوِّ بينهما فى فَكّ أَسْرهما ... مُستوفرًا منهما من أَجْر مأجور
يَفْديك بالأنفس التى مَنَنْت بها ... أبوهما وهما من كُلّ محذور

فقال المطهر: "الأمر إلى الملك والذى رسم لى إطلاق ولدك صاحب الشامة، ولو كنت مستطيعًا للجمع بينهما لفعلت، بل لم أقنع حتى تكون أنت المطلق"، وقال: "إذا كان قد أخذ فى تَخْلية واحد فيجوز أن يتناوبا فى الخروج وفسح المطهّر فى ذلك "[٢].

وفيما تبقى من رسائل أبى إسحاق الصابى إشارات إلى بعض ما كتبه إلى أبنائه وأهل ملّته من الصابئة، منها رسالة إلى ابنه المحسّن، وهما فى الاعتقال، مع نسخة

= ولهلال ابن مشهور، اسمه غرس النعمة محمد، وصف بأنه ذو فضائل جمّة ومؤلفات متنوّعة، الوافى بالوفيات للصفدى ١٦٨/٥ - ١٦٩؛ ومن ولد غرس النعمة: محمد بن إسحاق بن محمد بن هلال الصابى، ولد سنة ٤٨١ هـ وتوفى سنة ٥٦٣ هـ -الوافى بالوفيات ١٩١/٢ وانظر أيضا ١٩٩/٢ .

(١) وانظر ما أورده الثعالبى تحت عنوان: "ما أخرج من شعره فى والدته وأولاده" . يتيمة الدهر ٢٤٥/٢ - ٢٤٧.

(٢) معجم الأدباء ٨٢/١٧ - ٨٣ .

الجواب من الابن[١]، ومنها أيضا "فصل من كتاب له إلى ابنه أبى سعيد سنان بن إبراهيم - أدام الله عزّهما - وهو جواب"[٢].

* * * * *

ومن أهم الرسائل التى كتبها أبو إسحاق وأكثرها دلالة على عصرها، رسالة إلى ابنه أبى سعيد سنان، وقد وردت هذه الرسالة فى المخطوط المحفوظ فى مكتبة ليدن، وعنوانه: "الجزء الثالث من رسائل أبى إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحرّانى الصابى الكاتب، فيه ما كتبه فى المعاتبات، وما كتبه فى الشفاعات، وبعض ما نفذ إلى المتصرّفين والنواحى"[٣].

وقد كتب هذا المخطوط بخط نسخى جميل كامل النقط مضبوط الحركات[٤].

وليس فى هذه الرسالة ما يشير إلى تاريخ كتابتها صراحة، ولكن أبا إسحاق ذكر فيها أنه بواسط، وأنه تعب ملتاث تتواتر عليه المنامات التى يستوحش لها، وقال: إن "من الأشياء الصغائر التى أضعفت نفسى ما اتّفق من غرق بغلنا الأشهب بواسط يوم تحوّلت سنتى الثانية والأربعون، نسأل الله بركتها ..."، والمعروف أنه وُلد فى سنة ٣١٣ هـ ، ويفهم من ذلك ومن حديثه عن "مولانا الأمير معزّ الدولة" أن الرسالة كتبت سنة ٣٥٥ هـ وهى السنة التى خرج فيها أبو إسحاق إلى واسط، وكان معز الدولة قد ندب أبا الفرج محمد بن العباس بن فسانجس للخروج مع الجيش إلى عمان، وأنفذ أبا الفضل العباس بن الحسين الشيرازى لمحاربة عمران بن شاهين[٥].

وتكشف هذه الرسالة عن مشاعره فى هذه الفترة ، فهو يشكو مرّ الشكوى من تعب الجسم وقلق النفس ومن إحساس بأن "الحوادث غير مأمونة"، وقد صدق حدسه لأن

---

(١) المختار من رسائل أبى إسحاق الصابى، تحقيق: محمد يونس عبد العال (رسالة دكتوراه مخطوطة، فى مكتبة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م) القسم الثانى، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٢) رسائل أبى إسحاق الصابى (مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر، تحت رقم: ٧١٥٦ - أباظة) ص ٦٥أ - ٦٩أ؛ رسائل أبى إسحاق الصابى (نسخة مصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة ليدن، تحت رقم: ٧٦٦) ص ١٩أ - ٢٤أ.

وفى مخطوط مكتبة الجامع الأزهر أيضا رسالة تعزية، عنوانها: "وكتب عن ابنه أبى سعيد سنان " ص ٣٣أ - ٣٤ب.

(٣) مكتبة ليدن (رقم ٧٦٦) صفحة ١١٥ب - ١١٨أ.

(٤) وممّا كُتب على غلاف المخطوط: "أظنّ أنه بخط العلامة الإتقانى صاحب غاية البيان فى شرح الهداية"، وعلى الغلاف أيضًا بعض تملّكات، واحد منها دون تاريخ، وثلاثة فى السنوات ٩٤٩، ١٠٠٩، ١٠١٣ هـ.

(٥) تجارب الأمم لمسكويه، نشر: هـ . ف. أمدروز (ط التمدن الصناعية بمصر، ١٣٣٣ هـ / ١٩١٥م) ٢/٢١٧.

معزّ الدولة توفى فى ربيع الآخر من السنة التالية (٣٥٦ هـ) وكان من وصاياه لابنه عزّ الدولة أن يُقرّ كاتبيه أبا الفضل وأبا الفرج؛ لأنهما أكفى من غيرهما وأعرف بوجوه الخدمة، ولكنه أوحشهما "وضرّب بينهما حتى استوحشا جميعا منه ..."[١]، وقد نُكب أبو إسحاق فى هذه السنة واعتقل مرة أخرى[٢].

ولهذه الرسالة دلالاتها على طائفة الصابئة فى القرن الرابع الهجرى، وإشارات إلى والدة أبى إسحاق وزوجته وأخيه أبى العلاء وابنه أبى على المحسن وإلى آخرين من رجال عصره، فضلا عما تضمّنته من إشارات تاريخية واجتماعية، من أهمها أن أبا إسحاق يريد من ابنه أن يسلم والدته ما معه من المال ويأخذ خطها بحصول ذلك فى يدها، كما طلب منه أن ينسخ ثبت أملاكه كلها ... إلخ

والملحوظ - وهى ملحوظة جديرة بالتأمل - أن هذه الرسالة وهى من قبيل الرسائل الإخوانية الشخصية قد تخلت عن قيود السجع، فصارت مرسلة طليقة متخفّفة مما أثقل به أبو إسحاق نفسه فى كتاباته الديوانية من وشّى البديع.

النصّ:

كتابى - جعلنى اللهُ فداءَك - ووصل كتابُك - أبقاك الله - وفهمتُه، وأجبتُك عنه جوابًا كنت أمليتُه على الكاتب بعد إفطارى من صَوم اليوم الأوّل من صومنا الذى نحن فيه - عرّفنا الله جميعا بَرَكته - وأنا تَعِب مُلتاث[٣]؛ فلم أَستوفه، وعَمِلت على إتباعه بما يَشْرحه.

واعلم - فديتُك - أنّ صُورتى قد استحالت عن كلّ ما كنت تَعْهده منى؛ لأن الشيْب قد لبسنى، وأَسْرع إلىَّ، حتّى إنك لو رأيتَنى لما عَرَفْتنى مثلاً مضروبًا[٤]، وقد لحقنى فُتور وضَعْف فى نفسى وجسمى، وتواترتْ علىَّ مَنامات، رأيت فيها شَيْخى على أحوال استوحشتُ لها.

فلولا أن سيّدنا الأستاذ[٥] غائبٌ فى الوجه الذى هو بصَدَده، أَحْسن الله معونته، وأن مُعَوّله علىَّ خاصّة فى النيابة عنه فى الأمور كلّها - لتوصّلت إلى وُقوع الإذنِ لى فى

(١) تجارب الأمم ٢/٢٣٤ - ٢٣٨.

(٢) المختار من رسائل أبى إسحاق الصابى، القسم الأول، ص ٢٨.

(٣) الملتاث: هو الذى اختلطت عليه الأمور والتبست، ويقال: التاث فى كلامه أى عَىَّ بحجّته، انظر: لسان العرب لابن منظور (ط بولاق، ١٣٠٨ هـ) ٣/٥-٧.

(٤) كذا.

(٥) لعله أبو الفضل الشيرازى، وكان أبو إسحاق الصابى يخلفه فى عمله.

الإصعاد، وأرجو أن يُسهّل الله من انحلال هذه العُقْدة على الإيثار والمحبّة ما تتعجّل معه الأَوْبة، ويَرْزقنى من النظر إلى وَجْهك ووجُوه الجماعة - أبقاها الله - ما أسكُن إليه، وأُسَرّ به، وأَحْمد الله عليه . إن شاء الله.

وقد تَجدّدت لى - قَدّمنى الله قبلك - نِيّة فى وَصيّة، أُوصى بها إليك وإلى أَخيك أبى على[١] - أنا أفديكما من المحذورِ كله - وليس يَحْتمل ذلك الكتاب؛ ولا بُدّ معه من المُشافهة.

وسبيلُك ألا تَضَعَ كتابى هذا من يَدك حتى تستعدّ للانحدار، وتنتظر إنفاذى الزَّيْزَب[٢]، فإنه لا يَتَأَخّر عنك على إثر هذا الكتاب بعد عَوْده من حَضرة سيّدنا، فإن أبا سَهْل استعاره منّى، وحَدَره معه إلى هناك فى رسالة تَحَمّلها من مَوْلانا الأمير مُعزّ الدولة، وهو يَعُود عن قُرب، بإذن الله.

وأوّلُ ما سبيلك أن تعملَه أن تُسلّم إلى والدتك - أبقاها الله - كلَّ ما لى فى يَدك؛ من حِساب ودراهم ودنانير وقليل وكثير، وتأخذ خَطّها بحُصول ذلك فى يَدها، واحملْه معك؛ لتُسلّمه إلىَّ، ونَتَواقف عليه وعلى غيره ممّا بيننا شفاهًا، وتصلح - أنا أفديك - أمورك، وتَنْتظر الزبزب لتَنْحدر فيه .

ويَنْبغى أن تَنْسَخ ثَبَت[٣] أَمْلاكى كلّها؛ من ضَيْعَة وشِقْص وحِصّة وشَركة ورَحًا وقليل وكثير[٤]، ليثبت ذلك فى الوصيّة؛ فإن لى فى تقديم هذا الباب غرضًا، سبيلك مع ما لى عليك من الحقّ والطاعة أن تُساعدنى عليه، ولا تُخالفنى فيه، فاعمل - أنا أفديك - على ذلك، واحذرْ أنْ تَضْجَع[٥] فيه، أو تَتَشاغل عنه .

إن شاء الله.

---

(١) هو المحسّن بن أبى إسحاق إبراهيم.

(٢) الزيزب: سفينة صغيرة . شفاء الغليل للخفاجى (ط الوهبية، القاهرة، ١٢٨٢ هـ) ص ١١٧

(٣) الثبت: بمعنى الصحيفة يثبت فيها الأدلّة.

(٤) الضيعة: العقار أو الأرض المغلّة أو المنازل، والضيعة عند الحاضرة: مال الرجل من النخل والكرم والأرض . لسان العرب ٩٩/١٠ - ١٠٠؛ تاج العروس (ط الخيرية بمصر، ١٣٠٧ هـ) ٤٣٧/٥ .
والشقص: القطعة من الأرض أو هو السهم أو النصيب فى العين المشتركة من كل شىء . لسان العرب ٣١٤/٨؛ تاج العروس ٤٠٢/٤ .
والحصّة: النصيب من الأرض والطعام والشراب وغير ذلك . لسان العرب /٢٨٠٨؛ تاج العروس ٣٨٠/٤. ٣٨١ .
والشركة: بمعنى الاشتراك فى الأرض أو مخالطة الشريكين. لسان العرب ٣٣٤/١٢؛ تاج العروس /١٥٠٧.
والرحا . من الأرض . مكان مستدير غليظ يكون بين الرمال وترتفع عما حولها . لسان العرب ٢٧/١٩ ؛ تاج العروس ١٤٦/١٠ .

(٥) ضجع فى الأمر يضجَع، وضَجَّع أيضا: قصّر ووهن ولم يقم به.

وينبغى - قُدّمت قبلك - ألا يقف على هذا الكتاب والدتى، ولا أحد من حرمنا وباقى أَهْلنا؛ لِئلا يَغْتَمّوا، وتَضْعُف نفوسُهم، بل أنت وَحْدَك تَقِف عليه ووالدتك وأخوك وأبو العلاء أخى خاصّة ، وتسأله عنّى مثل ما قد كاتبتُه به، وسألتُه إيّاه من النِّيابة عنّى فيما كنت - أنا أَفديك - تتوبُ فيه عنى ؛ من أَمْر الضَّيْعة والتَّسْويغ[١] والمَنْزل ولِقاء السُّلْطان مُدّة الأيّام التى تَغيب فيها عن مَدينة السلام.

وإلى أن تَعود - بإذن الله - فإننى عاملٌ على أن أَنظر؛ فإن كان إصعادُنا يَقْرُب احتبستك عندى، إلى أن نَصْعَد فى مَوْضع واحد، وإن كان لنا مُقامٌ يطولُ فَرَغت مما بينى وبينك، واسْتَوْدعتك الله ، ورَدَدْتك إلى بَغْداذ[٢]، ولله المَشيّة.

نَعَم، وممّا ينبغى أن تَفْرغ منه قبلَ انحدارك إلىَّ، إقامةُ خادم بوّاب بغيض جلد، لا يشرب النبيذ، ولا يدخلُ فى الفُضُول، وتستحلفُه أن يُلازم الباب، وتُسلّم إليه الأَقْفال، وألا يتصرّفَ فى قَضاء حاجة، ولا يُفارق مَوضعَه، وعلى أنّى أظنّك قد أَحْكَمْت ذلك، ولم تَسْتَجِز تأخيرَه، مع ما نَفَذَ عنّى فيه من الكُتب المُهمّة إليك وإلى أخى أبى العلاء.

واعلمْ - قَدَّمنى الله قبلك من كلّ سُوء ومحذور - أنّى لست أخطُّ إليك خَطًّا بعد هذا الكتاب، أو يَرِدَ علىَّ جوابُه بما أسكُنُ إليه، وأَقِفُ عنده . إن شاء الله.

ولعلّى - أنا أفديك - أن أُدخلَك إلى مَولانا معزّ الدولة، وأَجعل لك رَسْمًا فى الوُقوف بين يديه، بل هذا مُتمكّن فى نفسى، مع ما قد استشعرته، وأُؤكد على[٣] سيّدنا فى أَمْرك وتَصْريفك ؛ فقد صِرْتَ رَجُلاً - أُعيذك بالله - وأنا فى وَقْتى هذا على خِلاف ما عَهِدْتنى ضَعْفَ قلبٍ وجسم، وخَوْفًا ووَجَلاً[٤]، والحوادثُ غيرُ مَأْمونة، ولا بُدّ لى من بُلُوغ ما فى نفسى من هذه الوَصيّة، وأن آخذ بحظّ من النظرِ فى أبوابِ البرّ وإخلاصِ النيّة فى أسبابٍ أستأنفها، وأمورٍ أعملها، حَسْبَ الإمكان .

إن شاء الله.

ولا تُقدّر - قدّمنى الله قبلك - أن كتابى هذا صَدَر عن خاطرٍ ضعيف، ولا عن

(١) يقال: سوّغه أى جوّزه، وسوّغ له كذا أى أعطاه إيّاه، وتسويغات السلاطين من هذا، والمراد بالتسويغ الإذن فى تناول الاستحقاق فى جهة معيّنة تيسيرا وتسهيلا على الآخذ. لسان العرب ١٠/٣١٧ - ٣١٨ ؛ تاج العروس ٦/١٧ - ١٨ .

(٢) "بغداد" بالدالين، هى اللغة المشهورة فى العرب، ويقول بعضهم "بغداذ" بالذال فى آخرها وهى أقلّ اللغات. تاريخ بغداد ١/٦٠-٦١ .

(٣) كذا.

(٤) كذا.

عارض خفيف، ولا عن نيّةٍ فيها فُتور، ولا بَصيرة فيها تَقْصير، بل بعد أشياءِ تَكَرّرت علىَّ، وألوانٍ طريفةٍ اتّفقت لى، وطَويّة صحيحة أَخْلَصْتُها، وعَزيمةٍ قويّة أَمْضَيْتُها؛ فليكن عملُك بحسب ذلك.

ومن الأشياءِ الصغائر التى أَضْعَفت نفسى، ما اتّفق من غَرَق بَغْلنا الأَشْهَب بواسِط يومَ تحوّلت[1] سنتى الثانيةُ والأربعون - نسألُ اللهَ بركَتها - فإنه سَقَط بمركبه إلى وَسَط دِجْلة، وتَلِف، ثم أَخْرجه الغاصَة[2]، فأَخَذْنا المركبَ سالماً تامّاً، ولله الحمد!

وقد كنتُ كتبتُ إليك فى هذا المعنى كتابًا، أرجو أن يكون قد وصل، وعَرَّفتك فيه أنّنى لم أَغْتمّ على البَغْل، بل اغتممتُ لاتّفاق مثل ذلك يومَ تحوّلتْ سَنتى ، ورَسَمت لك أن تتقدّمَ إلى أبى الحسن المُنجّم بتحويلها والحُكْم عليها وشَرْح ذلك؛ ليكون معك إذا[3] أنفذت إليك الزَّبْزب، وأَذِنْتُ لك فى الانحدار حَدَرته إلىَّ معك.

فافعلْ - أنا أفديك - ذلك، وقدّمه، ولا تُؤَخّره، ولا تَشْغَل قَلْبَك بالبَغْل؛ فقد ابتعتُ لك بغلةً، شعرةٌ منها خيرٌ منه[4]، فَدَاك اللهُ يا سَيّد أبيه.

وحَسْبُنا الله ونِعْم الوكيل.

(١) يقال: حال عليه الحول أى أتى وتمّ. لسان العرب ١٣/١٩٥ ؛ تاج العروس ٧/٢٩٣ .

(٢) الغاصّة والغوّاصون: كلاهما جمع غائص، وهو الذى ينزل تحت الماء. لسان العرب ٨/٣٢٩ - ٣٣٠ ؛ تاج العروس ٤/٤١٣ .

(٣) كذا، ولعله: "فإذا".

(٤) الذى فى المخطوط: "خير منه وبه"، وفيه زيادة لعلها مقحمة من الناسخ أو لعل فى الكلام سقطا.